75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام ـ الجمهورية العراقية ـ المجلد الخامس ـ العدد الثالث ١٣٩٦ـ١٩٧٦

تاريخ فن العمارة العربية الإسلامية

مدارس هذا الفن والفترات الكبرى لتطوره

القسم الثاني

بقلم

شريف يوسف

الفترة الكبرى الثانية

دامت هذه الفترة زهاء قرنين ونصف القرن ، ففي بداية القرن العاشر للميلاد الرابع للهجرة اخذ الضعف والانحلال يدب في ادارة الدولة العباسية وصارت الاقاليم الاسلامية تستقل عن عاصمة الخلافة تدريجيا ، الا اننا نجد في خلال هذه الفترة ظهور خلافتان قويتان تتاسسان في كل من مصر والاندلس .

كانت تونس مقرا للخلافة الفاطمية لمدة ستين سنة ، وقد انشا (عبيدالله المهدي) ، الذي حكم من عام ٩٠٨م الى عام ٩٣٤م (مدينة المهدية) وبنى فيها مسجدا وقصرا له . وفي زمن الخليفة الفاطمي الرابع (المعز لدين‌الله) ٩٥٣-٩٧٥م ، امر قائده (جوهر الصقلي) بفتح مصر ، فاستطاع الدخول في مدينة الفسطاط سنة ٩٦٩ م .

شرع جوهر في بناء مدينة جديدة في مصر لتكون معسكرا لجنده سماها (القاهرة) بجوار الفسطاط والقطائع ، فاصبحت القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية بعد ذلك . خطت القاهرةبحيث يتوسطها قصر الخليفة ، وقد اراد المعز ان يجعل القاهرة مدينة الخاصة ويبقى الفسطاط مدينة العامة . سور القاهرة بسور وجعل لهذا السور ثمانية ابواب ، اهمها (باب الفتوح) في منتصف الضلع الشمالي من السور ، و (باب زويلة) في منتصف الضلع الجنوبي وكان يصل بين هذين البابين طريق رئيسي اطلق عليه اسم (ما بين القصرين) ، وهذا الطريقيقسم القاهرة الى قسمين متساويين تقريبا .

وقد قسمت القاهرة الى خطط ، كل خطة منسوبة الى قوم او قبائل كانوا في صحبة جوهر . اما قصر الخليفة الذي بناه جوهر فيقع امام ميدان فسيح ولم يكن بعيدا عن (الجامع الازهر) . ولما قدم المعز الى القاهرة امر بزيادة مساحة هذا القصر بحيث يحتوي الدواوين والخزائن ومجموعة من القصور منها قصر الذهب وقصر الظفر وقصر الورد وقصر الحريم . وبنى ابنه (العزيز بالله) قصرا عرف ب (القصر الشرقي) لم يكن اقل شانا من قصر ابيه .

المساجد والاضرحة الفاطمية

شيد الفاطميون عددا من المساجد والجوامع الرائعة البناء في القاهرة ، منها (جامع الازهر) و (جامع الحاكم) و (جامع الجيوشي) و (جامع الاقمر) و (جامع الصالح) و (جامع السيدة رقية) وغيرها من الجوامع . وذكر (ناصر خسرو) انه كان في القاهرة عند زيارته لها في سنة ٤٤٠هـ-١٠٤٨م خمسة عشر جامعا ومسجدا . اما الاضرحة والجبانات فقد ذكرها (المقريزي) انه كان بجنوبي القاهرة جبانة تسمى (القرافة الكبرى) وانها كانت مليئة بالاضرحة والمشاهد والمنشئات في عصر الفاطميين .

كانت القرافة مدفن موتى الفاطميين ، بنى الناس بها الابنية الرائعة والمناظر الفاخرة البديعة ، وبها المساجد والزوايا والربط والخوانق ، وهي في الحقيقة مدينة كاملة الا انها قليلة السكان . واقدم هذه الاضرحة (مسجد اللؤلؤة) وكذلك مجموعة من المباني تعرف باسم (القباب السبع او السبع بنات) .

واسوة بجامع عمرو بن العاص في الفسطاط وجامع ابن طولون في القطائع اختط جوهر الصقلي في زمن الخليفة المعز (جامع الازهر) في القاهرة وفرغ من بنائه سنة ٣٦١هـ-٩٧٢م . ثم قام اربعة من الخلفاء الفاطميين بعد ذلك باجراء اصلاحات كثيرة في هذا الجامع . فقد كانت مساحة ارض الجامع ١٢٠٠٠ مترا مربعا تقريبا ثم تضاعفت هذه المساحة على مر العصور حتى اصبح الحرم اشبه بمستطيل طول ضلعه القبلي ٣٠٠قدما وعرضه ٢٥٠ قدما . وقد تحول هذا الجامع الى جامعة كبرى في عهد الخليفة (العزيز) ونقل اليه الخليفة (الحاكم) نصف ما كان بدار الحكمة من كتب وزاد في بنائه .

مميزات العمارة الفاطمية

تتميز عمارات الفاطميين في استخدام الحجارة بدلا من الاجر في البناء واقتصر استخدام الاجر على بناء العقودوالسقوف

والجوانب الداخلية للجدران والاجزاء العليا من المآذن . وقد عنى البناؤن في قطع الحجارة وصقلها وتنسيقها في البناء وتفننوا في الزخرفة المنحوتة على الحجر .

واستخدم الفاطميون الصنج المشقة لعمل العقـــود المنبطحة للعتبات الافقية في النوافذ والابواب بدلا من العقود المقوسة او المدببة ، واتخذت الصنج في هذه العتبات مظهرا زخرفيا مع احتفاظها بوظيفتها المعمارية واصبحت تتكون من انصاف دوائر متقابلة مرتبطة بخطوط مصغرة .

واستخدم الفاطميون انواعا اخرى من العقود منها المقوسة والمدببة والمطولة والمنبطحة والمعدبة ، واكثر العقود شهرة هي العقود المفرجة التي يطلق عليها (العقد الفارسي) خطا .

في العهد الفاطمي تطور بناء المحاريب تطورا كبيرا حيث أحيط جدار المحراب باطار كبير مستطيل تمتد عليه الزخارف والكتابات الكوفية فاصبح اشبه بستارة مزركشة مسدلة على الجدار فوق المحراب وعلى جوانبه . كما تحولت انصاف القباب التي تعلو المحاريب الى اشكال محارات شمسية تنبثق ضلوعها من دوائر وسطى ، وتحولت عقود طاقات المحراب المتتابعة الى مجموعة من العقود المقرنصة او الطاقات المسطحة .

واستخدم الفاطميون القباب المقامة على مقرنصات معقودة ، وهذه المقرنصات مجموعة من الطاقات والعقود نضمت في نظام زخرفي قوامه التكرار والتدرج . ويمتاز العصر الفاطمي في بناء نوع خاص من المآذن يظهر فيها فكرة الانسياب من جهة وتدرج الطوابق من جهة اخرى ، وقد ظهر لاول مرة في تاريخ العمارة الاسلامية بناء الطريز مزدوج من المقرنصات يدور حول نهايـــة الطابق الاول من مئذنتي جامع الجيوشي ، وجعل هذا المقرنص على هيئة شرفة بارزة فوق الطابق الاول او بشكل اطار يفصل بينه وبين الطابق الثاني .

وفي هذا العصر لم تعد الزخارف في المساجد مقتصرة علـى داخل البناء بل اصبحت تمتد الى حيث تبدو مكشوفة وظاهرة للناظرين في خارجها .

الدولـة الايوبيـة

ضعفت الدولة الفاطمية وكان (العاضد) آخر خلفائها ، فحاول الصليبيون غزو مصر ، فارسل (نور الدين) السلجوقي سنة ١١٦٨م جيشا من الشام بقيادة (شيركوه) وابن اخيـه (صلاح الدين الايوبي) للدفاع عنها ، وقد اصبح شيركوه وزيرا للعاضد وبعد سنة خلفه صلاح‌الدين في الوزارة .

وعندما توفي العاضد تولى الحكم صلاح‌الدين واسس‌الدولة الايوبية سنة ٥٦٧هـ‌ـ١١٧١م فوجه ضربة قاصمة للصليبيين في موقعة (حطين) وانتزع منهم بيت المقدس واجلاهم من بقية مدن الشـام وفلسطين .

ويعتبر صلاح‌الدين واضع أسس مدينة القاهرة الحالية ، حيث قام بدمج العواصم التي سبقتها ، الفسطاط والقطائع ، وازال ما بينها من ابواب وعوائق ، وعمر مسجد عمرو العتيق ، وامر ببناء سور جديد يحيط بالقاهرة وبناء (قلعة الجبل) . ومن بعد صلاح‌الدين اكمل (العادل) ثم (الكامل) العديد من المشاريع وظهر نشاط معماري كبير في كل من مصر وبلاد الشام فبنيت حصون واسوار ومدارس ومستشفيات وقصور كثيرة فيهمـــا .

تعتبر (قلعة الجبل) في القاهرة من اكثر العمارات الايوبية شهرة . وقد قسمت القلعة الى قسمين اساسيين الاول القلعة وهي القسم الجنوبي الغربي من هذا الحصن ، وكانت تحتوي على القصور والدور والخزانات السلطانية ، والثاني هو القسم الشمالي الشرقي ويسمى (قلعة الجبل) وتضم معسكـــرات الجنود ومعداتهم ، والقلعة بشكلها العام مدينة عظيمة محاطـة باسوار ضخمة من جميع الجهات ، يصل بين قسميها باب عام وباب خاص . ومن اعجب الاعمال الهندسية في هذه القلعة البئر الذي يستقى منها الجيش والسكان اذا منع عنهم الماء وقـت الحصار ـ يبلغ عمق هذا البئر ٩٠ مترا تقريبا ويتكون من طابقين، لكل منها ساقية ترتفع المياه فيها بواسطة الدولاب .

ومن منشآت هذا العصر (مشهد الامام الشافعي) في القاهرة ، وهو ضريح عظيم للامام المتوفى سنة ٨١٩م وقد اقيم فوق الضريح قبة ضمت قبر الشافعي وبعض قبور الاســرة الايوبية . وتمتاز هذه القبة بما فيها من نقوش وزخارف . وبجوار هذا المشهد (المدرسة الصلاحية) . ومن مميزات بناء المدارس الاسلامية جعل جدار القبلة قاعدة التخطيط وهو منه بمثابة المحور ، واهم قسم في هذا الجدار بيت الصلاة الذي يطل على صحن مكشوف ويستمد منه الضوء والهواء ، ويحيط بهذا الصحن عادة مجنبتان ومؤخرة تكون غرفا لسكنى الطلاب وقاعات واواوين .

ومن مباني هذا العصر ضريح (الصالح نجم‌الدين ايوب) بنته زوجته الملكة (شجرة الدر) سنة ١٢٥٠م . في واجهة هذا البناء تجاويف ومقرنصات وكتابات نسخية وصنج معشوق وعقود منحوتة في الحجر آية في الابداع والاتقان . وبجوار هذا الضريح بنيت (المدرسة الصالحية) التي لم يبق منها الآن الا جزءا من قاعة مستطيلة في مؤخرها ، وبوابة المدرسة وواجهتها الشمالية ومئذنتها التي ترتفع عن سطح الارض بمقدار ٣٠ مترا فيها ثلاثة طوابق ، الاول مكعب والثاني مثمن والاخير هو تاجها او مبخرتها التي تنتهي بقبة مضلعة .

الدولـة النوريـة

تمتعت سوريا رغم الحروب الصليبية في عهدي السـلطان (نور الدين) و (صلاح‌الدين الايوبي) بازهى حلقة من تاريخها باستثناء العصر الاموي ، ولا تزال الى اليوم في دمشق وحلب وغيرهما من المدن مخلفات العمارات والمدارس التي انشاها ابناء هاتين الاسرتين .

رمم نورالدين اسوار دمشق بما فيها من ابراج وابواب ، وبنى دورا للحكومة ، واسس مدرسة مختصة بعلم الحـديث وانشا البيمارستان النوري الذي اصبح الان جزءا من مدرسة الطب في دمشق ، وهذا بالاضافة الى المدارس التي بناها في كل من حلب وحمص وحماة وبعلبك وترميمات في قلعة حلب .

اما صلاح‌الدين الايوبي فقد بز سلفه في بناء دور العلـم والمدارس العديدة ورباطات وبيمارستانين . ومن مزايا المدارس الايوبية القوة والمتانة في البناء ، واتخاذ الحجر الناعم في البناء الذي تظهر فيه المواضيع الزخرفية بمنتهى الدقة والاناقة .

وفي حلب بنت (ظريفة خاتون) زوجة الملك الزاهـــر (غازي بن صلاح الدين) مجموعة من الابنية تكون مســـجدا ومدرسة وضريحا تسمى (جامع الفردوس) ، وتعد هذه المدرسة من اجمل الابنية القديمة في حلب . ويعد بناء (قلعة حلب) الشهيرة من اعظم ما شيده العرب من الناحية‌المعمارية‌العسكرية.

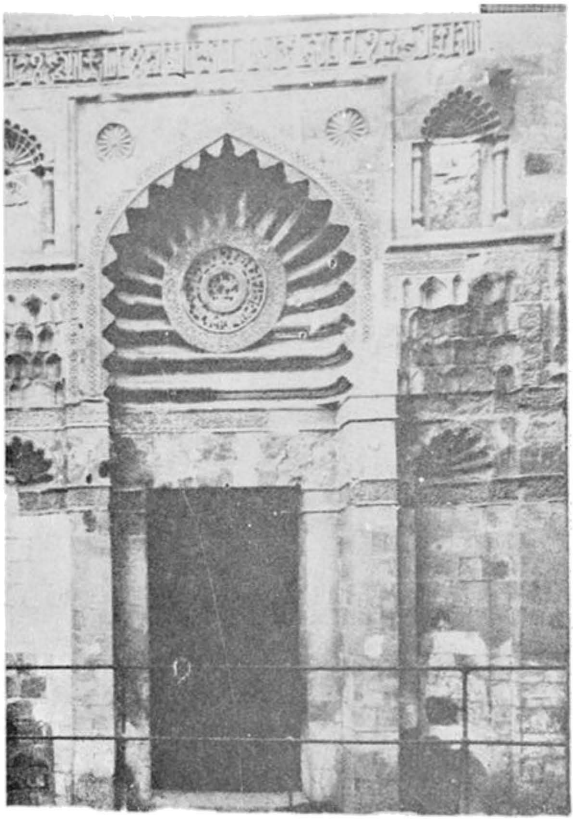

مسجد الأقمر في القاهرة بناه الخليفة الفاطمي الآمر باحكام الله سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م والزخرفة البارزة في البناء هي الاشعاعات من مركز يمثل الشمس في اغلب الأحيان .

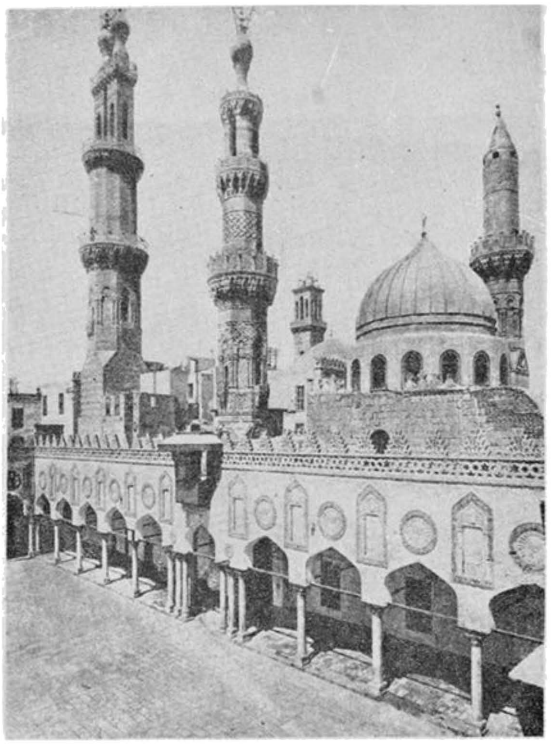

الجامع الأزهر في القاهرة الذي بناه الفاطميون سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م وخلفه نرى مئذنة جامع الغوري ذات الراسين .

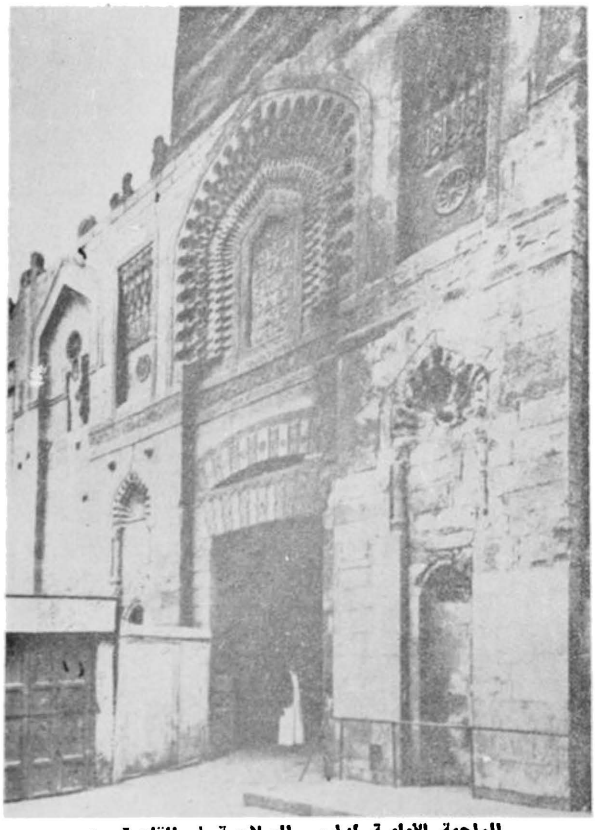

الواجهة الأمامية لمدارس الصلاحية في القاهرة وهي من اجمل أبنية المدارس في العصر الايوبي .

مدرسة وقبة وبيمارستان قلاوون في القاهرة . بنيت سنة ١٢٨٥ م في شارع بين القصرين .

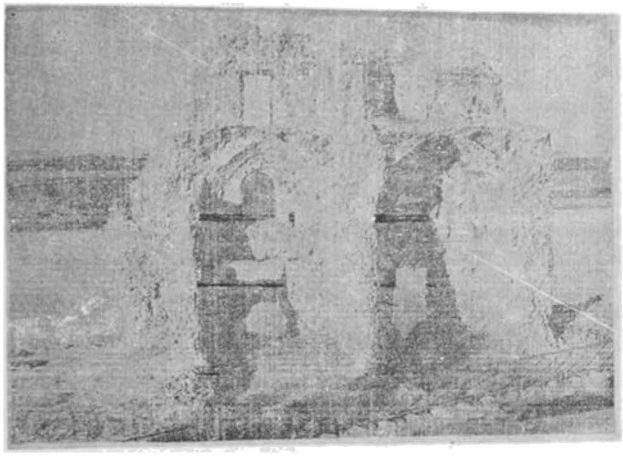

بقايا قصر السلطان بدرالدين لؤلؤ في الموصل المعروف بـ (قره سراي) وقد تم بناؤه سنة ٦٣٠هـ .

المئذنة الحدباء في الجامع الكبير في الموصل شيدها نورالدين محمود بن عمادالدين زنكي حوالي سنة ١٢٢٣ م ، وهي خير مثال للزخرفة الآجرية السلجوقية .

منظر صحن السباع في قصر الحمراء في غرناطة بنى هذا القصر محمد بن يوسف بن الأحمر الغالب سنة ١٢٤٨ م واصبح اليوم مثالا لجمال الزخرفة العربية الاسلامية .

ضريح يحيى أبي القاسم في الموصل الذي بناه بدرالدين لؤلؤ واقام عليه هذه القبة الهرمية الشكل

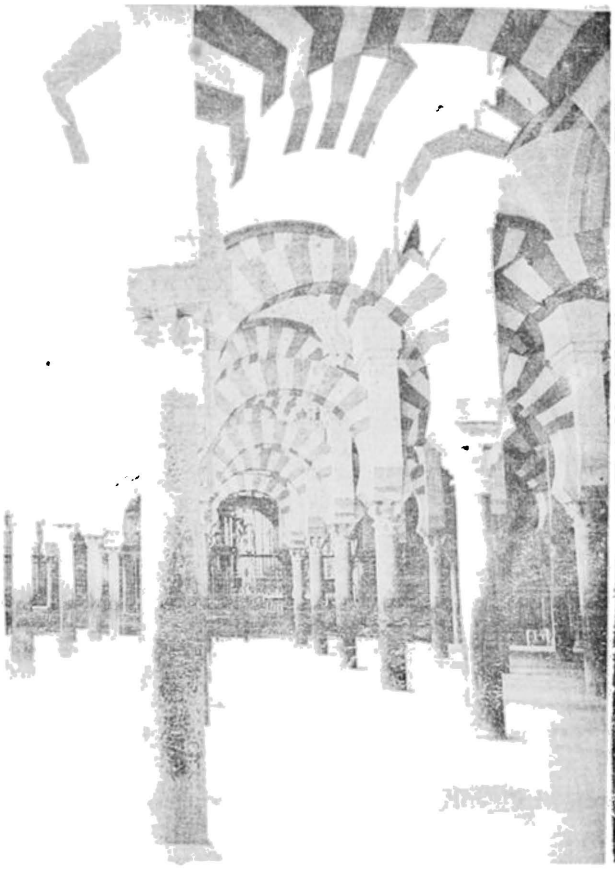

منظر داخل مسجد قرطبة الكبير نلاحظ فيه غابة الاعمدة التي تحمل الاقواس الشبيهة بحدوة الفرس .

مئذنة المسجد الجامع في اشبيلية المعروفة بـ (الخيرالدا) بنيت سنة ١١٨١ م واصبحت الآن برجا للنواقيس .

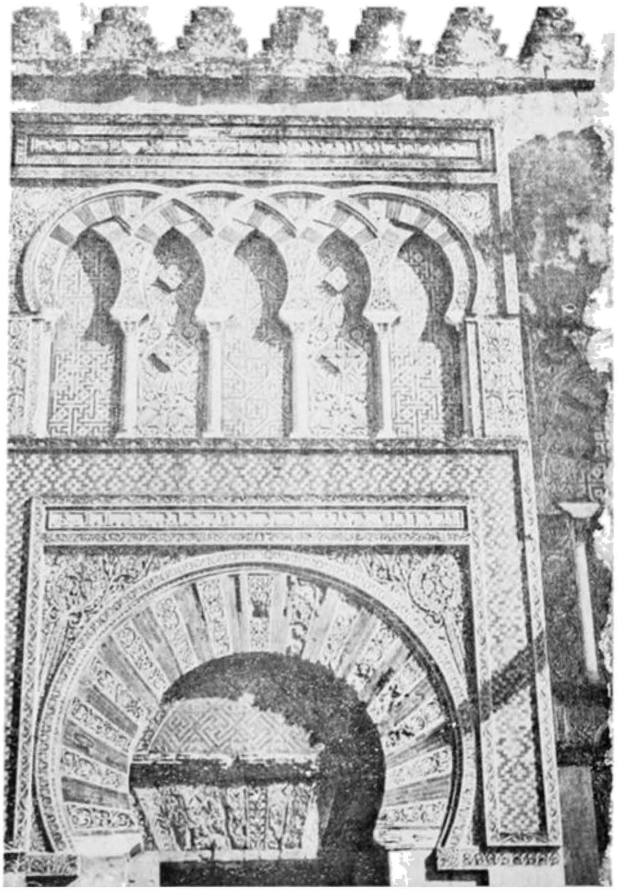

الزخرفة والكتابة في مدخل المسجد الجامع في قرطبة اسس هذا الجامع الامير عبدالرحمن الداخل سنة ٧٨٥ م ووسع بناءه خلفاؤه وآخر توسعة له كانت سنة ٩٨٧ م .

قلعة الجبل التي بناها صلاح‌الدين الأيوبي في القاهرة ويظهر في الصورة برجا الرملة والحدار . وقد اكمل بناء الملك الكامل سنة ٦١٤ هـ . وخلف السور تظهر مآذن مسجد الناصر أحد ملوك المماليك في مصر سنة ١٣١٨ م .

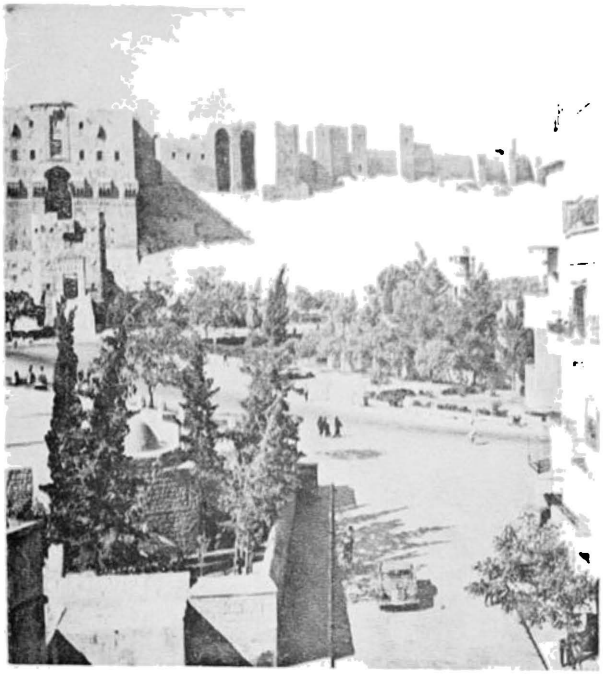

قلعة حلب العظيمة التي تقع في وسط المدينة والتي بناها صلاح‌الدين الايوبي سنة ١١٨٣ م وتعدّ من اعظم المباني الاسلامية .

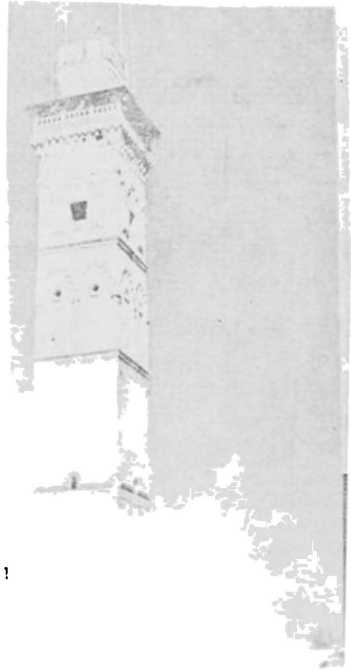

مئذنة الجامع الاموي في حلب . وهي من أجمل المآذن التي تمثل الطراز السلجوقي في حلب .

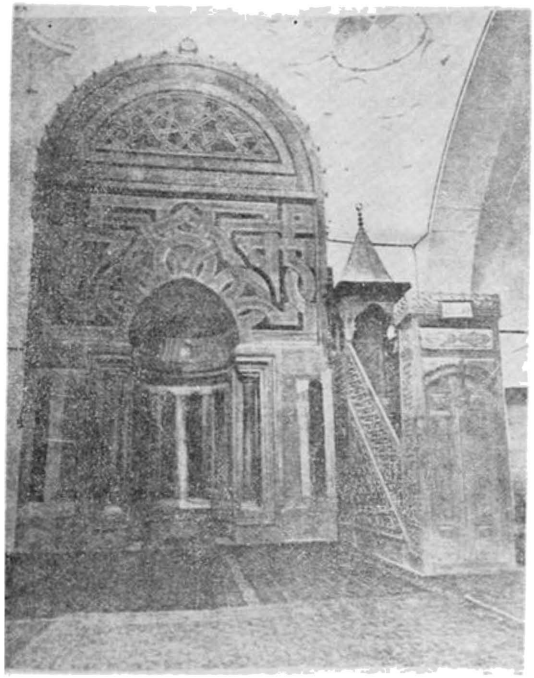

محراب مسجد الفردوس في حلب الذي بنته (ظريفة خاتون) زوجة الملك الظاهر غازي بن صلاح‌الدين وفيها مدرسة وضريح .

تقع القلعة في وسط مدينة حلب تقريبا وهي بشكل اهليجي ذات مدخل شامخ في الجهة الجنوبية الغربية ، وقطر استدارة سورها يقرب من ٢٠٠و٣٠٠ متر ، وعرض الخندق الذي يحيط بها ١٠٠ متر ، وفي داخلها جامعان قديمان وفوق المدخل الكبير قاعة العرش التي شيدها المماليك وخلفها آثار قصورهم لا تزال بعض جدرانها قائمة الى اليوم . وفي الداخل سجن رهيب حفرت دهاليزه في الجبل بعمق كبير لا يدخله النور مطلقا .

دولة المماليك في مصر

اكثر (الصالح ايوب) سابع ملوك الدولة الايوبية من شراء المماليك وجعل منهم خاصة بطانته وامراء دولته ، وانشأ في (جزيرة الروضة) في القاهرة قلعة قرب (مقياس النيل) عرفت بقلعة الروضة ، وبنى فيها القصور والدور والابراج وجامعا ، واتخذها دار ملك وسكن فيها باهله وحرمه واسكن فيها مماليكه، وقد عرفوا بـ (المماليك البحرية) . وقد درست هذه القلعة ولم يبق لها اثر اليوم .

وعندما قتل الملك (غياث‌الدين توران شاه بن الصالح ايوب) بزغت الى الوجود دولة (المماليك البحرية) سنة ١٢٥٠م . وقد اشتهر من ملوكها (الظاهر بيبرس) و (قلاوون) و (الناصر) و (السلطان حسن) وقد ظهر في عهودهم انتاج باهر في العمارة وهندسة البناء باسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ ايام البطالسة والفراعنة .

ففي المساجد والمدارس والاضرحة التي شادها هؤلاء الملوك بلغ فن العمارة الاسلامية ابهى مظاهره واتقن البناءون الى حد كبير اسلوب تشييد الجوامع المدرسية ذات الشكل المصلب ، وظهرت القبة في هيئة تتحدى كل الاشكال المنافسة لها من حيث الخفة والظرافة واناقة الزخرفة .

وبعد ذهاب دولة المماليك البحرية قامت (دولة المماليك البرجية ـ الشراكسة) ، وقد دام حكمهم لمصر من سنة ١٣٨٢ الى سنة ١٥١٧م ، وبلغ عدد سلاطينهم ٢٣ سلطانا كلهم شراكسة عدا اثنين روميين . حذا هؤلاء حذو ملوك البحرية فعمروا القاهرة فامتدت ابنيتهم مسافات بعيدة في الريدانية (العباسية) ، وشيد سلاطينهم الابنية الفخمة ، وادخلوا كثيرا من التعديلات على هندسة البناء ، فتميزت ابنيتهم بمميزات صارت علما على فن العمارة في عهدهم ، من ذلك تغطية بعض صحون المدارس بعد ان كانت مكشوفة ، وزخرفة المآذن براسين والبعض الآخر باربعة رؤوس . ولمعت الحقبة البرجية بالابنية التي شادها الملوك (برقوق) و (قايتباي) و (الغوري) .

من تلك الابنية (مسجد السلطان برقوق ، الذي يقع في الجهة الشمالية من مدرسة الناصر قلاوون بالنحاسين وهذه المباني تكون مجموعة من اجمل المباني في القاهرة . وبنى برقوق مقبرة للمماليك تعرف بـ (القرافة الشرقية) ، وهذه التربة عبارة عن مدرسة تدرس فيها العلوم الشرعية وفيها مسجد وخانقاه فخمة للصوفية .

وبنى السلطان (الملك مؤيد) جامعا بجوار باب زويلة وجعل مئذنتي هذا الجامع على بدنتي الباب ، وفي الايوان الشرقي وهو القسم الباقي من هذا المسجد ، نقوش زخرفية بديعة . اما (تربة وجامع قايتباي) فهي مجموعة نادرة من المباني بديعة التصميم ومتناسقة المبنى ، وتتكون من مدرسة وملحقاتها وتربة وسبيل وكتاب . وللمسجد مئذنة رشيقة تعتبر من اجمل المآذن بالقاهرة ، كما تعد القبة في هذا البناء من اجمل القباب فهي مغطاة بزخارف هندسية مزهرة بديعة الصنع وبمنتهى الاتقان .

العراق في العهدين البويهي والسلجوقي

(بنو بويه) اسرة فارسية عرفت باسم مؤسسها (ابي شجاع بويه) ، واشتهر من رجالها (معز الدولة) وابن اخيه (عضد الدولة) . وقد دخل معزالدولة بغداد سنة ٣٣٤هـ ـ ٩٤٥م في خلافة (المستكفي) وملكها بلا كلفة ، وصار يخطب له على منابرها ويضرب اسمه على الدرهم والدينار بها .

خلع المستكفي من الخلافة وصار الخلفاء من بعده العوبة بايدي البويهيين ، ودامت امارة معز الدولة على العراق نحو ٢٢ سنة ، واشتهر ببعض الاعمال العمرانية ، فشيد دارا له في محلة (الشماسية) الواقعة شمال الاعظمية في المنطقة المعروفة بـ (الصليخ) ، وقد بنيت الدار على ضفة دجلة اليسرى وذاع صيتها لجمال موقعها وفخامة بنائها ، خرب من اجلها دورا وقصورا ، وعمل ميدانا وبنى الاصطبلات ، ومد مسناة بطول ١٥٠٠ متر لهذا القصر ، ونقل احسن مواد البناء من قصور الخلفاء بسامراء ومنها المعشوق ، وحمل آجره الى بغداد ، وجعل لهذه الدار المتسعة الارجاء سورا منيعا ونقل الابواب الحديدية القائمة في مدينة المنصور الى داره .

وقد آلت هذه الدار الى الخراب ، شرع في تخريبها (بهاء الدولة) عندما شرع في تعمير داره في (سوق الثلاثا) . واستفاد من انقاضها في البناء الجديد .

اما (دار المملكة البويهية) فكانت في (المخرم) التي كانت تمتد من الجسر الحديدي الى العيواضية في بغداد في الوقت الحاضر . وكانت هذه الدار قديما لـ (سبكتكين) مملوك معز الدولة وتعرف بـ (السبتيني) . وقد قام (عضد الدولة) بتوسيع هذه الدار وانشأ للجميع مسناة وجعلها (دار العامة) لجلوس الوزراء ، وما يتصل بها من الاروقة والمباني مواضع للدواوين ، وصارت هذه المجموعة من المباني (دار السلطنة) في ايام السلاجقة .

هدمت هذه المباني بعد ذلك بامر الخليفة الناصرلدين‌الله وزار اثرها ولم يبق منها الا المسجد الذي انشاه السلطان السلجوقي (ملكشاه بن آلب ارسلان) .

اما السلاجقة فهم من سلالة ملكية يرجع نسبهم الى (سلجوق بن دقماق) احد امراء التركمان ، جاءوا من سهل تركستان سنة ٩٥٦م ودخلوا بلاد ما وراء النهر ثم سيطروا على غرب آسيا . وبعد وفاة سلجوق تولى القيادة اخوه (ميكائيل) واعلن ولداه (طغرلبك) و (داود بك) نفسيهما حاميين للخلافة العباسية في بغداد .

وعندما وجد طغرلبك ان الخليفة العباسي (القائم بأحكام الله) اصبح العوبة بيد (الملك الرحيم) البويهي والوزير (البساسيري) توجه الى بغداد وقضى على البويهيين واعاد للخلافة هيبتها سنة ٤٥٠هـ‌١٠٥٨م ، فقام الخليفة واجلس طغرلبك على عرش رائع مناديا به حاكما للشرق والغرب .

وبعد وفاة طغرلبك تولى السلطنة ابن اخيه (آلب‌ارسلان) وكان خير من حكم الناس ، احترم العلم وكان يبتهج بمجالسة العلماء والحكماء ، واتخذ من (نظام الملك) وزيرا له ، واستولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة منتزعا اياهما من ايدي‌الفاطميين،

ثم احتل حلب فامتدت حدود مملكته من حدود افغانستان الى حدود مصر . ثم وجه جيوشه نحو الشمال ودحر جيوش البيزنطيين واسر الامبراطور (رومانوس) ، ثم تحول نحو تركستان للتغلب على (شاه خوارزم) ولكنه قتل في الطريق ، وبموته انطوت صفحة سلاجقة الفرس العظام واخذ سلاجقة الروم دورهم في تكوين الحوادث التي مرت في آسيا الصغرى . واشتهر من ملوكهم (ملكشاه) و (قليج ارسلان) و (نورالدين محمود زنكي) .

قام السلاجقة في القرن الثاني عشر باعادة تعمير المدن وانشاء تحصيناتها وبناء الجوامع وملأوا فضاء هذه المدن بالمنابر والقباب ، وشيدوا الاضرحة ذات السقوف المخروطية ، والتفتوا الى ناحية العلم وانشاوا المعاهد والمدارس والمياتم ودور العجزة والبيمارستانات وغيرها من المؤسسات الخيرية . عمروا الطرق وبنوا الجسور وشبكة من دور الاستراحة (الخانات) ذات الابواب البديعة الزخارف والنقوش المتشابكة المعقدة الدقيقة الصنع .

واهتم السلاجقة في بناء القصور الفخمة في بغداد واقامة الحدائق الغناء بطراز جديد ، وقام طغرلبك بتعمير (دار المملكة) التي انشاها من قبل عضد الدولة البويهي ، واصبحت مقر السلاطين السلاجقة الذين يقدمون الى بغداد ، وقد نزل فيها ملكشاه عند زيارته بغداد سنة ١٠٨٦ م . وفي هذا العهد استحدثت الزخارف المحفورة على الحجر او الجص كما في مساجد الموصل وقصورها وكنائسها ، وفي المسجد (النوري) محرابان من الحجر تزينهما زخارف التوريق النباتية الجميلة ، وكانت معظم الابنية تزين واجهاتها بالخط الكوفي الجميل ، وفي (قره سراي) في الموصل تظهر الزخرفة السلجوقية بكل وضوح .

وقد وصلت الموصل الى قمة مجدها ايام حكم (الاتابكه) ، وكان (بدر الدين لؤلؤ الاتابكي) اشهر حكامهم ، فقد استطاع ان يتفاهم مع المغول الغزاة فجنب مدينة الموصل شرهم ولكن ابنه (ملكشاه) حاول ان يقاوم (هولاكو) فكانت النتيجة قتله وتدمير الموصل .

بنى بدرالدين قبر (الامام يحيى) واقام في المسجد منارة هرمية الشكل مثمنة الاضلاع والزوايا ، كما بنى (الجامع الكبير) في الموصل وجعله في وسط المدينة ، واشتهر هذا الجامع بمئذنته المائلة (الحدباء) ، وهي اكثر المآثر العراقية تأثرا بالطراز السلجوقي ، ويبلغ ارتفاعها ٥٥ مترا ، وفي داخل بدنها سلمان كلاهما يؤدي الى اعلى المنارة .

وقام الاتابكيون بتعمير المدارس في الموصل منها (المدرسة النظامية) و (مدرسة جامع النوري) و (المدرسة النورية) التي فيها مشهد الامام (يحيى بن القاسم) وفيها دفن بدرالدين، ويعد هذا المشهد من انفس العمارات الاتابكية لما يحوى من نقوش وزخارف وكتابات في داخل البناء وخارجه .

وفي هذا العهد انتشرت في العراق عمارات الربط التي كانت آمكنة للصوفية وصارت مراكز للتعليم والتاليف ، ومن اشهرها (رباط الخدم) و (رباط الاخلاطية) الذي بناه الخليفة الناصر لدين الله . وكانت (المدرسة النظامية) في بغداد الذي بناها الوزير (نظام الملك) السلجوقي سنة ١٠٦٤م في عهد السلطان « آلب ارسلان » رائعة البناء وهي بداية التنظيم الجامعي في الاسلام .

ومن المدارس التي شيدت في هذا العهد في بغداد (مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلي) و (مدرسة الشيخ عمر السهروردي). وشيدت (زمرد خاتون) مسجد الحظائر المعروف بـ (جامع الخفافين) ومئذنته هي المئذنة الوحيدة الباقية من العصر السلجوقي . كما ان مئذنة (جامع قمرية) في جانب الكرخ من المآذن المتأثرة بالفن السلجوقي .

وشيد ملكشاه (جامع السلطان) في سوق الميدان على الارجح ، وكانت الاضرحة تبنى على قاعدة مسدسة او مثمنة على شكل هرمي مما يجعل لها تتويجة الى القصى حد ، كقبة (السيدة زمرد خاتون) في الكرخ ، وقبة (امام دور) شمال سامراء ، وقبة (الحسن البصري) في الزبير ، ومرقد (حزقيال) في الكفل . بعد هذا ننتقل الى ما انجزه العرب في بلاد الاندلس ونستعرض ما شيدوه هناك من بدائع الفن المعماري .

العرب في بلاد الاندلس

فتح العرب بلاد الاندلس عام ٩١هـ-٧١١م بامر (موسى بن نصير) عامل الدولة الاموية على شمال افريقية ، وعندما انتهى حكم الامويين في الشام تمكن (عبدالرحمن الداخل) حفيد الخليفة (هشام بن عبدالملك) من النجاة من المذبحة الكبرى التي دشن العباسيون بها عهدهم الجديد . وقد نودي بعبدالرحمن اميرا على (قرطبة) سنة ٧٥٥م فكانت اول مقاطعة انشقت عن الخلافة العباسية .

مر تاريخ بني امية في الاندلس في عصرين مهمين ـ عصر الامارة من سنة ٧٥٦ الى سنة ٩٢٨م ، ثم عصر الخلافة الذي انتهى سنة ١٠٢١م . وخلال عصر الامراء اتخذت (قرطبة) عاصمة للمملكة واصبحت من اجمل عواصم الدنيا في ذلك العصر بعد بغداد . انشا عبدالرحمن الداخل فيها دواوين الدولة وجعلها كلها بجانب قصر الامارة ، وشيد القصور المعروفة بـ (الكامل) و (الروضة) و (الزهراء) و (المبارك) ، وبنى بيت الوزراء وبيت المال وبيت الاحفاد وغيرها .

وعندما فتح المسلمون قرطبة اتخذوا نصف كنيستها المعروفة بـ (سنت فنسنت) مسجدا لهم ، ثم اشترى عبدالرحمن النصف الثاني من الكنيسة واسس جامع قرطبة الكبير . ثم اخذ هذا الجامع يتوسع على يد حكام الاندلس حتى اصبح بناؤه يثير اعجاب الزائرين حتى الان . وقد بلغت مساحة الجامع ٢٢٢٥٠ مترا مربعا ، ويعد من حيث المساحة ثالث جامع في العالم الاسلامي ويأتي بعد مسجدي سامراء الكبيرين . واجمل قسم في الجامع المحراب الذي يمتاز بكونه على هيئة غرفة تؤدي اليها بوابة رائعة الزخرفة واقواس على شكل حدوة الفرس زينت عقودها بالفسيفساء . وتقع قبة الجامع امام هذا المحراب وتستند على قاعدة مثمنة فوق اخرى مربعة ، والانتقال من المربع الى المثمن في هذه القبة اكثر اتقانا من تلك في قبة محراب جامع القيروان .

وتقع مئذنة الجامع او صومعته في الزاوية الشمالية من البناء ، وقد شوه منظرها بناء برج مربع الشكل رفعت باعلى قبتها اجراس كنائسية فحجبت المنارة داخل البرج . واشتهر جامع قرطبة بغابة الاعمدة الرخامية في بيت الصلاة ، وهذه الاعمدة تحمل اقواسا بشكل حدوة الفرس فوقها دعامات تحمل صفا اخر من الاقواس وبذلك يصبح ارتفاع سقف الجامع عن سطح الارض ٩٫٥٠ مترا تقريبا ، ويبلغ عدد الاعمدة في الحرم ١٢٩٣ عمودا .

لقد بلغت الاندلس في ايام عبدالرحمن الثالث الملقب ب (الناصر) ، ٩٣٦م ، قمة مجدها . فبعد اعلانه الخلافة في الاندلس اصبح بلاطه في ذلك الوقت افخم ما عرفته اوربا ، ويعتبر عصره الذي تجاوز الخمسين عاما من ازهى عصور العرب في الاندلس ، وبلغت قرطبة أوج فيه مجدها .

وعندما ضاق بلاطه في قرطبة رغم سعته بنى (مدينةالزهراء) غرب قرطبة وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها ، وانشاها على السفح المنحدر المؤدي الى (الوادي الكبير) وجعل فيها ثلاثة احياء او طبقات ـ الاولى تتضمن القصور والاسواق ، والثانية خصصت للحدائق والرياض ، والثالثة للبساتين والحمامات والخانات والحراس . وقد هرع الناس يشيدون البيوت والقصور فيها ويشغلون الاسواق والمتاجر فيها ، وازدحمت بالسكان حتى اوشك عمرانها ان يتصل بقرطبة .

قصر الحمراء

في غرناطة بني (محمد بن يوسف بن نصر الاحمر الغالب) داره الشهيرة المعروفة ب (قصر الحمراء) سنة ١٢٤٨م . ثم قام ثلاثة خلفاء من بعده بتوسيع هذا القصر وزادوا في زينته وزخرفته حتى صار آية من آيات الهندسة العربية في اسبانيا ، ولا تزال الحمراء تبهر عيون الناظرين بما فيها من بدائع الزخرفة والاطارير ذات النقوش والرسوم . في هذا القصر اقام (بنو نصر) بلاطهم واصبحت غرناطة وريثة قرطبة وخليفتها في رعاية العلم والفن . وقد بلغت اصول الزخرفة العربية اوجها في الحمراء ، أجاد الصناع في عمل التعاريش والاطارير والنقوش المنثورة في كل مكان ، والكتابة التي تطرز الافواس والآيات الكريمة و (الاستلكتايت) المتدلية من فوق بعض الشرفات . وكانت اكثر الزخارف الداخلية قد تمت في عهد (ابي الحجاج يوسف) سنة ١٣٣٣ـ١٣٥٤م وهو الذي اتم بناء هذا القصر .

وقوام قصر الحمراء اقسام ثلاثة ـ القسم الاول ، وهو المسمى (المشور) الذي يعقد فيه الملك مجلسه ، والثاني قسم الاستقبالات الرسمية ، ويشمل الديوان وقاعة العرش ، والثالث قسم الحريم الذي يضم المساكن الخاصة بالملوك ونسائهم . وابدع قسم من اقسام هذا القصر هو (حوش الريحان) الذي يطل على فسقية الحوش ، وكذلك (قاعة العدل) و (قاعة السفراء) الداخلة في (برج قمارش) وهي افخم قاعة في القصر ، مربعة الشكل تعلوها قبة خشبية ذات نقوش مذهبة ، وقد نقشت جدران هذه القاعة بنقوش متغايرة في غاية الاتقانوالابداع، والناظر الى هذه النقوش يجد ان كل نقشة منها تختلف كل الاختلاف عن غيرها ولكنها جميلة بتناسقها وكل جزء منها متمم للآخر . ويتصل بهذا الجزء من القصر (صحن السباع) ، وهو اكثر اجزاء القصر شهرة ، وقد شيدت في منتصفه فسقيه رخامية من عدة احواض ، اكبرها قائم على تماثيل اسود من الرخام عددها اثنى عشر اسدا ، يخرج من فم كل واحد منها فوارة ماء . وارضية الفناء مقسمة الى اربع مناطق مغطاة بالرمل تفصلها لوحات من الرخام ، وتحيط بهذا الفناء باتكات منالعقود مزينة بالنقوش ، تعلوها مساحة مثقبة بزخارف غاية في الابداع، وتحمل هذه الباتكات اعمدة ممشوقة جميلة تبهر مشاهدها بما يعلوها من جمال في فن العمارة والزخرفة ولا يضارعها الا ما يشاهد في (قاعة الاختين) و (قاعة بني سراج) في هذا القصر ، تلك القاعتان اللتان تطلان على هذا الفناء وتمتازان بوفرة زخارفها المقرنصة والنقوش النباتية والكتابات العربية المنمقة .

اما مسجد القصر فلا يقل عن باقي اجزاء القصر بهاء وجمالا من حيث الزخرفة والنقوش . وفي حمام القصر فسقية رخامية يحيط بها اربعة اعمدة من المرمر تحمل السقف ، وحول الحمام في الطابق العلوي منه شرفات كلها غنية بالنقوشالمذهبة، وفي قبة الحمام فتحات للاضاءة مثبت عليها قطع من الزجاج الملون .

ويلاحظ في تصميم قصر الحمراء ان البناء لم يشيد كوحدة كاملة متناسبة التوزيع لانه بني في مراحل متعاقبة ، كما يلاحظ الاسراف في الزخرفة دون الاهتمام بمتانة البناء مما سبب تهدم بعض الاقسام بمرور السنين والايام فاصلحت في ازمنة مختلفة متعاقبة .

قصر اشبيلية

ومن الآثار العربية في الاندلس قصر اشبيلية المعروف ب (الكازار) . واقدم قسم في هذا القصر بناه مهندس طليطلي لعامل (الموحدين) سنة ١٢٠٠م ، ثم اعيد بناؤه على الطراز العربي بامر الملك (بطرس الصارم) الاسباني سنة ١٣٥٣م . وتعتز مدينة اشبيلية باثر خالد للموحدين هو صومعة او مئذنة المسجد الجامع فيها والمعروفة ب (الخيرالدا) اي الخالدة ، بنيت سنة ١١٨١م ، وقد افسد الاسبان منظرها الجميل بازالة القمة المخرمة وانشاء ابنية مربعة مكانها ننتهي بقبة عليها كتابة وصورة امراة تمثل الايمان .

وعندما ضعفت الخلافة الاموية في الاندلس واستقل كل امير في البلاد بما كان تحت امرته من ولاية قامت عدة دويلات متقطعة الاوصال متناحرة ، وعرف عصرهم هذا بعصر (ملوك الطوائف) . وعلى الرغم من هذا الانحلال السياسي في هذا العصر كان كل امير يحاول جاهدا ان يحاكي او ينافس خصمه من نواحي شتى ومن ضمنها الاعمار والانشاء

فقد شيد (المامون بن ذي النون) قصرا في طليطلة ضاعت معالمه اليوم بسبب الحروب الاهلية في اسبانيا واعتصام الثوار في هذا القصر لحصانته ومنعته . ولكن المقرى وصفه بكونه قصرا عظيما في وسطه بحيرة وفي وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، جلب الماء الى راسها وصار ينزل من اعلاها على جوانبها فتصبح قبة الزجاج في غلالة ماء والمامون قاعد تحتها لم يصبه الماء .

وكان جامع طليطلة كنيسة حولها العرب الى مسجد جامع وبقي الامر كذلك الى سنة ١٠٨٥م التي استولى فيها الالفونس السادس) على طليطلة صلحا ، واشترط المسلمون لاجل تسليم البلدة بقاء المسجد الجامع لهم ورضي الالفونس بذلك ، ولكنه شرع في تغيير الجامع الى كنيسة خلافا لوعده ، ولا يزال هذا الجامع يحتفظ بجهته الشرقية التي فيها نقوش عربية بديعة وزخارف في غاية الاتقان والصنعة .

الخلاصـــــة

مما تقدم نرى ان الامبراطورية العربية الواسعة بدات بالتفكك في هذه الفترة وظهرت خلالها خلافتان مزاحمتان للخلافة العباسية في بغداد ، ظهرت دولة الفاطميين في تونس اولا ثم استولت على مصر واسست مدينة القاهرة وجعلتها عاصمـــة لهـــا ، وصـــارت تنـــافس بغـــداد في السياســة والثقافــة والعمران ، وتبعتها الدولة الايوبية التي خلصت البـــلاد الاسلامية من الصليبيين واهتمت بعد ذلك في الاعمار والانشاء ، ثم جاء بعدها دور ملوك المماليك وكانت عماراتهم في القاهرة مثال الجمال والابداع والاتقان .

اما في العراق فقد استغل البويهيون ضعف الخلفاءفنصبوا انفسهم سلاطين في بغداد وصار يخطب لهم في المساجد واشتهر منهم معز الدولة وعضد الدولة وقاموا ببعض الاعمال العمرانية ذات المنفعة الشخصية . وعندما ازاح السلاجقة البويهيين من الحكم رجعت للخلافة هيبتها ، واكثر السلاجقة من الاعمـــال العمرانية وانشاء المؤسسات الخيرية .

والخلافة الثانية التي ظهرت في هذه الفترة هي الخلافة الاموية في الاندلس وفيها اسسوا دولة زاهرة وبلدا عامرا وتركوا فيها آثارا يفخر بها كل عربي يقصدها اليوم متاملا في عظمة قومه الخالين ، وما كانوا عليه من علو همم ، وسلامة ذوق ، ودقـة صنعة ، فينقسم قلبه بين الاعجاب بما صنعه اباؤه فيها ، وبين الحزن على خروجهم من ذلك الفردوس الذي ملكوه ، والوجد على ضياع ذلك الارث الذي عادوا فتركوه .

هذا وسنتناول في بحثنا القادم تفاصيل الفترة الثالثة من الفترات الكبرى لتطور فن العمارة العربية الاسلامية ان شـاء اللـــه .

(0) (0) (0)